



وجه الرأسمالية القبيح: الحملة ضد الشيوعية والش



ليس للشيوعيين ميليشيا مسلحة، لأن قيادة الحزب الشيوعي قررت أن الطائف يصنها (هيثم الموسوي)

الحاكمة، ولا يجب أن يمر هذا الهجوم مرور الكرام لما يحمله من تهديدات وأوصاف تطاول نضالات الآلاف من اللبنانيين والفلسطينيين والفلسطينيات من الذين حموا لبنان وفلسطين على مر عقود التاريخ اللبناني. إن الحملة ضد الشيوعية، هي حملة تدخل ضمن تأسيس الدولة اللبنانية منذ عهد الفرنسيين. كانت دولة الانتداب تلقي القبض على من يجاهر بالدعوة الشيوعية، أو حتى من يجاهر بالدعوة الرومانسية الاشتراكية الفرنسية الحاملة، وهذا هو حال الحركة الشيوعية اللبنانية في بداياتها. أما دولة ما بعد الاستقلال فقد أوكلت مهمة محاربة الشيوعية في أراضيها. ولم يُسمح للنخبة الشيوعية العربية بأن تنمو وأن تزدهر كما حال غيرها من الأحزاب والعقائد. لأن الإيديولوجية تلك كانت تشكل خطراً حقيقياً على مصالح السلطة الطبقية والسياسية (الحليفة) الحاكمة. كانت الحكومة الأميركية عبر برامج سرية وعلنية تمول تلك الحكومات التي تتبنى رسمياً محاربة الشيوعية بشتى الوسائل. وكانت صناعة الثقافة والإعلام في لبنان فرعاً من هذه الحروب (غير) السرية، وكانت جريدة «النهار» و«دار النهار» و«الحياة» وغيرهما من الصحف ودور النشر، تساهم في الحرب المضلّة ضد الشيوعية والشيوعيين. مُذكرات عن شيوعيين سابقين يذمون الشيوعية كانت تُنشر مُترجمة إلى العربية بعد أشهر قليلة فقط من نشرها في الغرب، وكانت شهادات قدرى القلعي التائب عن الشيوعية تملأ الصحف النقطية.

عملت كل أجهزة الأمن والجيش في لبنان على محاربة الشيوعية والشيوعيين في لبنان، وأوراق فريد شهاب (راجع كتاب «في خدمة الوطن: مختارات من الأوراق الخاصة لفريد شهاب») تكشف أن كان هناك أجهزة من خارج سلطة الدولة تعمل على التجسس على الشيوعية والشيوعيين (يبدو من أوراق شهاب أنه كان يدير جهاز تجسس خاص ضد الشيوعية والشيوعيين بعد تقاعده من وظيفته الرسمية وحساب جهة مجهولة). وقد خرقت أجهزة أمن الدولة المنظمات الشيوعية الفلسطينية وساهمت في خدمة العدو من وراء ذلك (هل كانت صدفة ان الذي جند وليد قدورة، الذي وصل إلى عضوية اللجنة المركزية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، لم يكن

”

الذين باعونا ماركس مُعلباً
من قبل ستالين، يبيعوننا
اليوم ماركس مُعلباً من
قبل البنك الدولي

“

غير أبو أرز عندما كان في جهاز الأمن العام اللبناني، كما كشف عصام أبو زكي أخيراً في كتابه «محفّات في ذاكرة وطن».) كانت الحركة التقدمية العربية، بنموذجها الجنبلاطي والبعثي والناصري، تساهم هي الأخرى في الحرب ضد الشيوعية والشيوعيين بحجة الدفاع عن الدين مع أن الحركة الشيوعية العربية تنصلت من الفكر المادي الإلحادي في نشرها للعقيدة الشيوعية (إلا في مرحلة وجيزة من التاريخ المُبكر للحزب الشيوعي العراقي في عهد حسين رخال). وما قاله حنا بطاطو عن الحزب الشيوعي العراقي في كتابه عن «الطبقات الاجتماعية القديمة والحركات الثورية في العراق» ينطبق على الأحزاب الشيوعية العربية. إن مطبوعات الحزب منذ الخمسينيات وما بعد لا تتضمن «إشارة واحدة» إلى الدين، وأن الحركة الشيوعية قرّرت التعامل مع الدين عبر التجاهل (ص. 410 من كتاب بطاطو). إن الحركة الشيوعية العربية قدّمت من التنازلات الكثير في محاولة منها لتجنب العداء والحرب ضدّها لكن ذلك الحق

الضرر بها لأنه فتح المجال امام المزيد من التنازلات العقائدية في تاريخها. إن هذه العوامل، والحروب والمجازر التي كانت تُشن ضد الشيوعية في العراق وفي السودان وفي الأردن وفي اليمن وفي عُمان — حتى لا ننسى تلك الثورة في عُمان والتي كتب عنها عبد الرزاق التكريتي أخيراً كتاباً قيماً — كلّها أضعفت من جسم الحركة الشيوعية العربية. لكن هذا لا يعفيها من مسؤولية الهزيمة والانكسار والضعف. لقد ساهمت قيادة خالد بكداش في ربط الحركة الشيوعية العربية بقرار التقسيم المشؤوم، كما أن قيادة الحزب الشيوعي اللبناني والسوري (وغيره من الأحزاب الشيوعية العربية) ساهمت طيلة سنوات الحكم السوفياتي في ربط الحزب وسياساته ذليلاً بالقيادة الموسكوبية. أكثر من ذلك، إن النموذج الشيوعي الذي قاده جورج حاوي ونقولا الشاوي وكريم مروّة في لبنان، فاق النموذج السوفياتي في قمعهِ وستالينته وفي رفضه للتنوع والنقد الذاتي الحقيقي. كان الإعلام الحزبي الشيوعي اللبناني أكثر تزمناً وانغلاقاً عقائدياً من إعلام الحزب الشيوعي السوفياتي.

فور سقوط الاتحاد السوفياتي، فرّ قادة الشيوعية اللبنانية من الماركسية مذعورين. والآنكى أن القيادة الشيوعية الستالينية التي فرضت الأجندة السوفياتية على كل الأحزاب الشيوعية العربية، كانت أول من هرب من تهمة الشيوعية بمجرد سقوط الاتحاد السوفياتي واصطنعت لنفسها تاريخاً مزيفاً من المواجهات والمعارضة لهيمنة الاتحاد السوفياتي والتي كانت هي المسؤولة عن نشرها في العالم العربي. كما أن الحرب ضد الشيوعية هي ذاتية: أكثر من محاولة للحل الذاتي للوجود التنظيمي تلبية لطلب خارجي. الحزب الشيوعي المصري حل نفسه عام 1965 تلبية لأوامر سوفيائية، والحزب الشيوعي السوري لم يرد أن يطالب بحقه في العمل في سوريا بعد إقامة الجمهورية العربية المتحدة. قبل بكداش حالة النفي شبه الطوعي، فيما قرّرت القيادة الستالينية للحزب الشيوعي اللبناني تجميع عقيدة الحزب وتغييرها بمجرد سقوط الاتحاد السوفياتي.

لقد ساهم رفيق الحريري في إسقاط الحركة الشيوعية في لبنان، عبر اجتذاب قادة من منظمة العمل الشيوعي والحزب الشيوعي اللبناني. طبعاً، ليس غريباً على المفسد الأكبر في تاريخ الجمهورية

اللبنانية أن يبتاع قيادات في كل الأحزاب اللبنانية من دون استثناء لكنه تعاطى مع الشيوعيين بطريقة مختلفة. كان يقبل أن يبقى القيادي الذي يبتاعه في «امل» أو «الحزب التقدمي الاشتراكي» أو «قرنة شهبان» أو «القوّات» أو «التجمّع الإسلامي» أو «حزب الكتائب» على عقيدته، لكنه كان يفرض على الشيوعي نبذ عقيدته وتقيؤ ذم الشيوعية واليسار مهنة. لا بل إن الحريري كان يُجند القيادات الشيوعية للعمل ضد المطالب التقدمية ضد الأحزاب الشيوعية. فتولّى، مثلاً، الماركسي العتيق محمّد كشلي مهمة ضرب الحركة العمالية المستقلّة (طبعاً بالتعاون مع حلفاء رفيق الحريري في المخابرات السورية).

ليس صدفة أن ذم اليسار والشيوعية في العالم العربي يجري بأقلام شيوعيين سابقين مهما كانت الذرائع والمسوغات والحجج والتنظيرات المضحكة. فضل هؤلاء طغاة الخليج على ماركس ولينين. طبعاً، هم يخرجون طاعة أنظمة الخليج على أنها خيار ديمقراطي. كل هؤلاء في الأنساق المختلفة من اليسارية المزيفة بألوان مختلفة من الولاء الخليجي تضخّ بصورة يومية العداء ضد اليسار وضد الشيوعية.

إن المكارثية العربية المعادية للشيوعية لم تنته على صغر الحركة الشيوعية العربية. لا تزال معاداة الشيوعية واليسار، عنوان مقالات الرأي المنشورة في صحف آل سعود التي لا تزال على نفس الحرب الباردة، والتي تكفّلت فيها الساحة العربية بالنيابة عن الأمر النهائي الأميركي. لا يزال سمير عطالله وغيره يملؤون صحف النقط بالسخرية من الشيوعية والتعرض ضدّها، برغم حالة الانحسار الفظيع للشيوعية في الساحة العربية. لكن عند هؤلاء، تعلق العقيدة الوهابية على ما عداها. كما أن لهم حساباً عسيراً مع الذين تجرّأوا على حكم الطغاة في الخليج. كان إعلام اليسار في الخمسينيات والستينيات حتى السبعينيات مُجاهراً بالدعوة إلى إسقاط كل الأنظمة الرجعية (لأن اليسار الفلسطيني جرّ اليسار العربي - اللبناني والسوري نحو مواقف أكثر ثورية بعد أن استكثت مواقف اليسار العربي بأوامر سوفيائية).

ذم الشيوعية يجري على أكثر من صعيد. هو يجري على أيدي شيوعية من الذين يعطلون الحزب الشيوعي اللبناني، والذين يميّعون عقيدته الماركسية عبر شعارات لا